بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية علمية محكمة لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان
العدد ٥ (خريف وشتاء ١٤٣٢ ـ ١٤٣٣ هـ. ق/١٣٩٠ هـ. ش)، ص ٧ ــ ٢١

التصوير الفنّي الباهت للتراث في شعر ابن نُباتة خاصة مدائحه النبوية[1]

سيدمحمد أميري*

الملخص

عاش ابن نباتة في فترة الانحطاط ؛ فاصطبغ شعره بالصبغة التي كانت عليها الأشعار في تلك الفترة، من تقليد وتكرار واستخدام ما لا يصلح أن يكون مادة في الشعر.

أما تقليده، فقد كان من كبار الشعراء ؛ كامرئ القيس، وطرفة بن العبد، وخنساء، وحسّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وأبي تمّام، والمتنبي وأبي نؤاس.

وأما التكرار، فقد ظهر في المعاني المكررة الكثيرة في ديوانه. نذكر على سبيل المثال، المعاني المتكررة التي ذكرها في مدح الرسول ﷺ، والمعاني التي كرّرها في مدح أمراء زمانه المختلفين.

وأما ما لا يصلح أن يكون مادة في الشعر، فهو استخدامه لمصطلحات أدبية من نحو وعروض ومصطلحات علم الحديث أو الرجال ومصطلحات صوفية.

قد استفاد ابن نباتة من القرآن والحديث معنى واقتباساً ؛ فبرز المفهوم الديني جليّاً في ديوانه نزولاً منه عند رغبة الأوساط الأدبية والناس آنذاك ؛ لأن المفهوم الديني كانت له منزلة، ولا بد للشاعر أن يلبّي هذا الطلب، وأن يقف عند هذه الرغبة العامة ؛ كما أنه صوّر لنا الجانب اللاأخلاقي في زمانه بأشعار ماجنة، وهي كثيرة في ديوانه.

المفردات الرئيسيّة: ابن نباتة، الأسلوب الشعري لابن نباتة، التصوير الفنّي، التراث عند ابن نباتة

المقدمة

فترة الانحطاط لها ميزاتها الخاصة، وآثارها في جوانب الحياة كافة. و منها الشعر، لِما طرأ عليه من ضعف وسقوط لأسباب كثيرة ـ كتفشّي العجمة، والرطانة، وخمول الأذهان، وإزراء الملوك بالشعر والشعراء ـ ، ولِما كان من هجوم التّتر من أثر عظيم في عدم إقبال العام والخاص على الشعر .

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٨٧/٨/٢هـ. ش (٢٠٠٨/١٠/٢٣م) ؛ تاريخ القبول: ١٣٨٨/١/٢٩هـ. ش (٢٠٠٩/٤/١٨م).

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد ـ نجف آباد.

ولذلك ابتعد الشعراء عن الابتكار، وأخذوا يقلدون القدامى، ويحذون حذوهم في كل شيء، ولا يضيفون على ديوان الشعر العربي إلا مضامين رتيبة مملّة، قد أساؤوا استخدامها في كثير من الأحايين.

حاولنا في هذه المقالة المتواضعة كشف هذه الجوانب عند أمير شعراء تلك الفترة، وهو الشيخ جمال الدين بن نُباتة المصري الذي عاش طويلاً في بلاط الحكام، وقضى فترة من الزمن طويلة يسافر فيها من بلد إلى بلد، ومن بلاط إلى بلاط حتى عاد إلى مصر أخيراً، ومات فيها عن سن يناهز ٨٠ عاماً.

التقليد في شعر فترة الانحطاط

الشعر الحي هو ما كان امتداداً لماضيه متماشياً مع ا لمستجدات والمستحدثات في حاضره. وهو يأخذ من الماضي والجذور، ويستمد منه طاقاتِه، ثم يتجاوب مع ما يجري في الواقع، لكن شعر هذه الفترة لم يستطع أن يلائم بين هذين الشِّقَّين؛ فقد كان أخذه واستمداده من التراث تقليداً بحتاً أفقد الشعر الابتكار والحيوية، وصارت مماشاته لواقع الحياة تكلفاً أنزل الشعر عن مستواه حتى «**كان التكليف والتقليد أظهر خصائص هذا الشعر دون الجمود الذي استولى على القرائح، فقطع ما بينها وبين الابتكار، ووقف بالشعراء عند أساليب المتقدمين ومعانيهم**» (البستاني، د ت، ص ٢١٥).

فقد ظلّت الموضوعات القديمة المألوفة تسيطر على الشعر والشعراء؛ كأنما هناك إصرار قوي على أن تظل للشعر العربي شخصيته، لكن مصطنعةٌ غير حقيقية، وتبقى موضوعاته، لكن تقليدية مكررة غير أصيلة.

ولقد لاحظ أدباء العصر المملوكي صعوبة الابتداع؛ لأنهم وجدوا أنهم مسبوقون إلى المعاني، لكن ذلك لم يدفعهم إلى اليأس؛ ففي المقدمة الغزلية للمدحة النبوية نجد شعراء يذكرون معاني اعتاد سابقوهم ذكْرها في مقدمات قصائدهم المدحية، أو في قصائد الغزل الخالص؛ مثل: معاني الاستسقاء لماضي الزمان، والتلهف على أحوال سالفة؛ كقول ابن نباتة:

سَقَى اللهُ أكنافَ الغَضا سائلَ الحَبا ... وإنْ كنتُ أسقي أدمعاً تتحدّرُ

وعيشاً نضا عنه الزمانُ بياضه ... وخلّفه في الرأس يزهو ويزهَرُ

(محمد، ١٩٩٩م، ص ٢٩٤)

ومن أجل أن يعوّض الشاعر عما في شعره من ضعف في المعنى والأسلوب، أخذ يتلاعب بالألفاظ، ويستخدم المحسنات البديعية، وسيلة للتغطية على هذا الضعف. فجاء الشعر مليئاً بالمحسنات من جناس وتورية وما إلى ذلك من البديعيات.

وجرى الشعر في طريقين؛ هما: الإباحية والزهد. وكان على كل حال تقليداً واقتباساً مع زيادة في الزخرفة؛ لأن الزخرفة أصبحت كل شيء في الكتابة والشعر. والشاعر الشاعر من تفوّق على غيره في تكديس المحسنات، وتركيب الأسجاع، ورصف التوريات؛ و الإكثار من الأجناس» (الفاخوري، ١٩٨٩م، ص ٣٨٦).

التصوير الفني الباهت

انعكس التراث الجاهلي والعباسي في شعر ابن نباتة انعكاساً واضحاً. فقد كان الشاعر يعبّر عن مضامين ذلك التراث، ومن أجل أن يكون اقتباسه هذا ثميناً مقبولاً، يسلك طريقين في ذلك؛ وهما:

أولاً. استخدام أشعار ذات صور فنية وأدبية عالية كانت قد أخذت مكانتها في الأوساط الأدبية؛ كاستخدامه لمضامين عدد من المعلقات، وأشعار المتنبي الراقية، وباقي الشعراء الآخرين الذين أخذوا مكانة عالية بين المتأدبين؛

ثانياً. استخدام معان ذات أثر نفسي قوي عند المسلمين العرب؛ وذلك فيما يتعلق بالرسول الكريم ﷺ في مدحه، من ذكر معجزاته، وتفضيله على سائر الأنبياء. وبهذا المضمون القيّم المحبّب لدى نفوس المسلمين أراد الشعراء أن يعوّضوا عما في شعرهم من الضعف.

هناك أسلوب آخر سلكه الشاعر ابن نباتة، وهو استخدامه مصطلحات أدبية وعلمية وصوفية من أجل أن يزوّد شعره بثروة معنوية زخمة، غير أن هذه المصطلحات لا تصلح أن تكون مادة للشعر؛ لبعدها عن الخيال، ولفقدها مقوّمات الكلمة الشعرية التي يجب أن تخاطب القلب والأحساس والعاطفة قبل كل شيء، بينما هذه المصطلحات تنشغل بالعقل والاستدلال أكثر من انشغالها بهذه المكونات الشعرية.

فلنترك البحث في هذا الجانب من شعره؛ لأنه لا يتناسب مع عنوان بحثنا الذي نحن بصدده، وهو الكشف عما في هذا الشعر من أثر التراث.

ولنستشهد الآن بما أفاد الشاعر من أشعار كبار الشعراء، نبحثها على الترتيب التاريخي على عادة دارسي قضايا تاريخ الأدب العربي.

١. تقليده لشعراء جاهليين

١,١. قال امرؤ القيس في مطلع معلقته:

قفا نَبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بينَ الدَّخول فحومل

(السابق، ص ٢٥)

أخذ ابن نباتة قسماً من هذا البيت، وصاغه صياغة أخرى في ثلاثة أبيات له؛ وهي:

يُذَكِّرُني مَغنى حِماهُ جمالَهُ فللّهِ ذكرى منزلٍ وحبيب

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٩)

أحبّاءُ ساروا قبلنا لمنازل فيا صاحبَيْ رَحْلي قِفا نبك من ذكرى

(السابق، ص ١٩٤)

فقلتُ لجفنيّ البعيدُ كَراهُما قفا نبك من ذكرى ديار وجيران

(السابق، ص ٤٩٤)

كان الصفدي من معاصري ابن نباتة، وقد كان مشهوراً بكثرة سرقاته من أشعار ابن نباتة. فكتب الأخير كتاباً سماه *خبز الشعير* يوبّخ فيه الصفدي على ذلك.

وأرسل الصفدي إلى ابن نباتة بقصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجازَ معلقة امرئ القيس، مفتتحاً لها بقوله:

أفي كلّ يوم منك عَتْبٌ يسوءُني كجُلمود صخر حطّه السّيل من علِ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقات منه في كتابه *خبز الشعير*. وصنع ابن نباتة صنيعه، فردّ عليه بقصيدة من نفس الطراز، شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلّقة امرئ القيس. واستهلّها بقوله:

فَطمْتُ وَلائي ثمّ أقبلتُ عاتباً أفاطمُ مَهْلاً بعضَ هذا التدلّل

بروحيَ ألفاظٌ تَعرَّضَ عَتْبُها تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاح المُفَصّل

فأحْيينَ وُدّاً كان كالرَّسم عافياً بسقْط اللّوى بينَ الدّخول فحومل

(ابن نباتة، د ت، ص ٣٩٢؛ نقلاً عن: ضيف، د ت، ص ٢١٦)

٢,١. قال طرفة بن العبد في مطلع معلّقته:

لِخولةَ أطـلالٌ ببُرْقَةَ ثَـهْمَد تَلوحُ كباقي الوَشْم في ظاهر اليد

وقوفاً بها صَحْبي عليّ مطيّهم يـقولون لا تهلِك أسى وتَـجَلّد

(طرفة، ١٩٩٤م، ص ٨٨ـ٨٩)

ثم واصل الكلام في آخرها وقال:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوّد

(السابق، ص ١٢٠)

وأفاد الشاعر ابن نباتة من هذه الأبيات، وصاغها بهذه الصورة:

تُحدّثك الأنفاسُ فيها عن اللُّما ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزوّد

فشِم بارقاً قد خوّلتْك ولا تَشِم لخولةَ أطلالاً ببرقة ثهمد

(ابن نباتة، د ت، ص ١٢٨)

أهْمَلتَ منها ما أرَدْتَ وبعضَها ناديتَ: لا تهلِك أسى وتَجَلّد

(السابق، ص ١٥٥)

٣,١. قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنّه عَلَمٌ في رأسه نارُ

(١٩٩٣م، ص ٢٦٠)

أخذ المعنى ابن نباتة وقال:

لي صديقٌ يَسوءني مـا يُقاسي من الألـم

كيف يُخفي شُجونَه وهي نارٌ عـلى عَلم

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٧٦)

هناك ظاهرة قديمة العهد في الشعر العربي تسمى في البديع «التصريع»، وهو أن تكون قافية الشطر الثاني هي قافية الشطر الأول نفسها وزناً ورويّاً وشَكلاً. وهو في الشعر مستحسن، لكنه غير ضروري، وقد استفتح به جميع المعلقات وأكثر قصائد الجاهلية؛ وهذا هو المكان الأكثر استحباباً للإتيان بالتصريع، لكن هذه القاعدة البديعية التي كانت تأتي عفوية نادرة، صارت كغيرها من القواعد البديعية في عصر الانحطاط أداة تعبيرية مملّة أكثَرَ الشعراءُ من الإتيان بها.

أما ابن نباتة، فقد استهل ديوانه بقصيدة مصرّعة، ليستمر التصريع في كثير من قصائده.

من ذاك القبيل قصيدة طويلة كل أبياتها مصرّعة، قالها ابن نباتة في أبي صصري، وهو أحد شعراء زمانه، واقترح عليه وزنَها وقافيتها؛ مطلعها:

وهاربٍ من رضوانْ أوقعني في النّيرانْ

والحسنُ شيءٌ فتّانْ وللشّـــجون أفْنانْ

وجَلَّ صُنْع الرحمنْ خالق قَدّ الأبْــدانْ

(ابن نباتة، د ت، ص ٥٠٨ ؛ نقلاً عن: يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٠١)

٢. تقليده للشعراء العباسيين:

استفاد شعراء عصر الانحطاط من شعراء العصر العباسي كثيراً لأسباب عديدة. منها لأن أولئك الشعراء خلّفوا أعمالاً شعرية خالدة وعظيمة من الناحية الفنية ؛ ولأن الشعر العباسي مليء بالمضامين الدينية التي أولع بها شعراء عصر الانحطاط. وأخيراً لأن جلّ شعراء العصر العباسي كانوا في بلاطات الحكام، ويتعاملون مع هذه الفئة الحاكمة، وقد أحسنوا معاملتهم، وهي الحال نفسها التي كان عليها شعراء عصر الانحطاط ؛ بمعنى أن شعراء العصر المملوكي أيضاً يرتادون بلاط الحكام، فنظروا إلى شعر الشعراء العباسيين، ليأخذوا منهم ما أرضوا به حكّامَ زمانهم.

١,٢. قال أبو تمّام في مدح المعتصم عند فتح عمّوريّة:

السّيفُ أصدقُ إنباءً من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

(أبو تمّام، ٢٠٠٠ م، ص ٣١)

قال ابن نباتة في الأسلوب نفسه:

وكلّمتْنا سيوفُ الكُتْب قائلةً ما السَّيفُ أصدقُ إنباءً من الكتُب

(ابن نباتة، د ت، ص ٤١)

٢,٢. قال المتنبي:

يا أُخْتَ خَير أخ يا بنتَ خير أب كنايةً بهما عن أشْرف النَّسب

(البرقوقي، د ت، ص ٤٨)

وقال ابن نباتة:

جادَتْ ضريحك للرّضوان غادية يا أختَ خير أخ يا بنتَ خير أب

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٨)

قال المتنبي:

لكلِّ امرئٍ من دهره ما تَعَوّدا وعادة سيف الدّولة الطّعْنُ في العِدى

(شيخو، ب د ت ، ص ٤٨)

وقال ابن نباتة:

فعاداتُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العِدى وعاداتُ ذا الطّعْنُ في العِدى والأحبّة

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٣٥)

قال المتنبي:

وا حَرَّ قلباه ممّن قلبه شَبِم ومَنْ بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

(العكبري، آ د ت، ص ٣٦٢)

قال ابن نباتة :

يزهُو الشّآمُ بَمنْ فارقتُ طَلْعَتَهُ   وا حَرَّ قلباهُ مِمّن قلبه شَبِم

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٣٥)

قال المتنبي :

مَن يَهُنْ يَسْهلِ الهوانُ عليه   ما لِجُرْح بمِيْت إيلامُ

(العكبري، ب د ت، ص ٩٤)

قال ابن نباتة :

جَرَحوه فما تألّمَ جُرحاً   ما لِجُرْح بمِيْت إيلامُ

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٣٥)

للمتنبي أسلوب في المدح، وهو أن يشرك نفسه في مدح من يمدحه، مما سبّب إزعاجاً عند سيف الدولة. وبما أن المتنبي وأساليبه الشعرية لاقت قبولاً حسناً عند الأوساط الأدبية ومن ذلك إشراك النفس في المديح «**فلا يفوت الشاعر (ابن نباتة)إشراك نفسه في موضوع المدح تمشّياًمع مذهب أبي الطيب الذي أصبح قاعدة عامة لدي الشعراء الذين جاؤوا بعده؛ فأفاد ابن نباتة من هذا الأسلوب، وجاء به في شعره حيث قال:**

وأنْشَدْتُ أمداحاً تقولُ لِمَنْ أتَتْ   مَدَحتُك بالشِّعْرَي وغيرَك بالشِّعْرِ

(ابن نباتة، د ت، ص ١٩٨ ؛ نقلاً عن: الأيوبي، ١٩٩٥م، ص ١٠٨)

كما قال في مكان آخر:

أصوغُ على الدُّرّ اليتيم مدائحاً   أُعَدُّ بها مِن صاغَةِ الشُّعراء

(ابن نباتة، د ت، ص ١٥)

لعل ابن نباتة هو واحد من أكبر شعراء العصر اعتزازاً بشعره. فهاهو يعتدُّ بشعره كما اعتدّ من قبله المتنبي قائلاً:

مَنْ مُبلغُ العُرْبَ عن شعري ودولته   إنّ ابنَ عبّاد باقٍ وابنَ زيدونا

وفي سياق مدحه الملك المؤيد، صاحب حماة، افتخر ابن نباتة بشعره وقريضه فقال مبالغاً:

تعلّمْتُ أنواعَ الكلام برفده   فأصبحتُ أعلى الناس شعراً وأحسنا

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٨٩)

وكثيرةٌ هي مفاخر ابن نباتة التي جعلها خواتم شعره،لاسيما في مدائحه التي هيمنت على موضوعات ديوانه. منها واحدة ختم بها مدحة كادت أن تبلغ خمسين بيتاً. فبعد أن عَدّ محامد ممدوحه وفضائله عليه قال:

وكم أنطقَتْ نُعماهُ منّي مدائحاً   سَرى ذكرُها غرباً وشرقاً فأدْلجا
أبا الخير خُذْها مِن ثنائي كرائماً   أبَتْ عن سوى أكفائها أنْ تَزَوَّجا
أوانِسُ أبكارٌ يَحقُّ لِحُسنها   على ساكن الأمصار أن يتبرّجا

(ابن نباتة، د ت، ص ٩١؛ نقلاً عن: يوسف، ٢٠٠٣م، ص٣٦٥)

٣. قال أبونؤاس «**قصيدة يعرض فيها بالنظام شيخ المعتزلة لتشدّده في أمر الغفران، ويتهمه بالكفر وتحقير الدين:**

دَعْ عنك لَوْمي فإنّ اللّوْمَ إغْراءُ   وداوِني بالتي كانت هي الدّاءُ

صفراءُ لا تنزِلُ الأحزانُ ساحتَها لو مَسَّها حجرٌ مسَّته سَــرّاءُ

(شيخو، ب د ت، ص ٥٤)

وقال ابن نباتة يمدح قاضي القضاة تقي الدين السبكي (المتوفي ٧٥٦هـ)، والد الكاتب الفقيه تاج الدين السبكي، مضمّناً قول أبي نؤاس في همزيته:

لو مسَّ تهذيبُه أو رِفْقُه حجراً مَسَّتْه في حالتَيه ألفُ سرّاء
مِن بيت فضل صحيح الوزن قدْ رَجَحَتْ به مفاخرُ آباءٍ وأبناء
...
إن أقطع الليل في مدحي له فلقد حَمِدْتُ عند صباح البشر إسرائي
...
يا جاحداً رامَ أنْ تخفى له مِنَـن هيهاتَ ما المِسْكُ مَطْوِيّاً بإخفاء

(ابن نباتة، د ت، ص ٩ـ١٠؛ نقلاً عن: الأيوبي، ١٩٩٥م، ص ١٠٥)

كما قال ابن نباتة يمدح الملك الأفضل الأيوبي ويعزّيه بوالده الملك المؤيد صاحب حماة:

هَناءٌ مَحا ذاك العزاءَ المقدَّما فما عبسَ المحزونُ حتى تَبسّما
ثغورُ ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لا يمتازُ ذو السَّبق منهما
نَردٌ مَجاري الدمع والبشرُ واضحٌ كوابل غَيثٍ في ضحى الشمس قد همى

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٢٩)

وما كان ذلك إلا تقليد لعبدالله بن همام وأبي نؤاس؛ إذ إن

باب التعزية بالملك الراحل والتهنئة بالملك القادم قديم في الشعر، وقد فتح هذا الباب للشعراء عبدالله بن همام السلولي؛ فإنه لما مات معاوية، تولى يزيد ابنه، ولم يقدم عليه أحد على تعزيته حتى قام عبدالله بن همام فقال:

اصبرْ يزيدُ فقد فارقْتَ ذا مِقَةٍ واشكُرْ حباءَ الذي بالملك حاباكا
لا رُزْءَ أعظمُ في الأقوام قد علموا مـمّا رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كـعُقبـاكا

وبعده قال أبونؤاس يهنّئ الأمين بالخلافة بعد موت الرشيد:

جَرَتْ جوارٍ بالسّعد والنَّحْس فالناسُ في وَحْشة وفي أُنْس
والعينُ تبكي والسِّنُّ ضاحِكةٌ فنحنُ في مأتَم وفي عُرْس
يُضحكها القائمُ الأمين ويُبكيـ ـها وفاةُ الرشيد بالأمس

(الركابي، ١٩٩٦م، ص١٨٧ـ١٨٨)

قد عُرف أبونؤاس بطردياته في الأدب العربي، والشعراء الذين أتَوا بعده قلّدوه في وصف الطرد والقنص، وشاعرنا لم تفُته هذه أيضاً؛ فقد قلّده في وصف الصيد وساحة القنص، وما استخدمه من وسائل فيه.

فقد خرج مع الأفضل في رحلة صيد. فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة بيت وصف فيها رياض حماة؛ ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق مثل قوله:

وكلُّ شاهين شَهيّ المُرتقى كبارقٍ طار وصَوْب قد هَمَى
بينا تراه ذاهباً لصيده معتصماً بأيده وكيده

حتى تراه عائداً من أفْقه ... ملتزماً طائرَه في عنقه
وكلّ صَقْرٍ مُسبِل الجناح ... مُواصل الغُدُوِّ والرَّواح
ذو مُقْلةٍ لها ضِرامٌ واقِد ... يكاد يشوي ما يصيد الصائد
كأنما المِخْلبُ منه مِنْجل ... لِحَصْدِ أعمار الطيور مُرْسَل
وكلُّ منسوب إلى سلوق ... أهرت وثّاب الخُطى مَشوق
طاوي الفؤاد ناشر الأظافر ... يا عجباً منه لطاوٍ ناشر
يَعَضُّ بالبيض ويخطو بالقنا ... ويسْبِقُ الوهمَ لإدراك المنى

وإنما تمثّلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة، على أن أرجوزة الطرد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أبي نـؤاس ومـن جـاؤوا بعـده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة (ضيف، د ت، ص ٢١٥ـ٢١٦).

وضمن ابن نباتة لأبي نؤاس فقال:

وحَسْبُ حاليَ إنْ كانَ الصدودُ رضًى ... فَداوِني بالتي كانتْ هي الدّاءُ
وهاك يا ساكناً قلبي كؤوسَ طلا ... لو مَسَّها حجرٌ مسَّتْه ضرّاءُ

(ابن نباتة، د ت، ص ١٦ ؛ نقلاً عن: يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٦)

وفي تشبيه الهلال بأشياءَ بديعةٍ تزيد على سبعين تشبيهاً. واعتنى الشيخ جمال الدين بن نباتة بجمع بعضها في قصيدته الرائية التي امتدح بها الملك المؤيد صاحب حماة، والتي أولها:

يا شاهرَ اللّحظِ حُبّي فيك مشهورُ ... وكاسِرَ الجَفْن قلبي منك مكسورُ

أما هذه التشبيهات التقليدية التي جمعها الشاعر في القصيدة المشار إليها، فقد وردت في قوله:

كأنَّ شكلَ هلال العيد في يده ... قَوسٌ على مُهَج الأعداء موتورُ
أو مِخْلبٌ مَدَّه نَسْرُ السّماء لهم ... فكلُّ طائر قلب منه مذعورُ
أو مِنْجَلٌ لحصاد القوم منعطف ... أو خنجرٌ مُرْهَف الحَدَّين مطرورُ
وهاك يا ساكناً قلبي كؤوسَ طلا ... (لو مسّها حجرٌ مسَّتْه ضرّاءُ)
أو نَعل تبر أجادتْ في هَديّته ... إلى جواد بن أيّوبَ المقاديرُ
أو راكعُ الظهرِ شكراً في الظلام على ... مَنْ فضلُه في السما والأرض مشكورُ
أو حاجبٌ أشمط يبني بأنّ له ... عمراً له في ظلال المُلْك تعميرُ
أو زورقٌ جاء فيه العيدُ منحدراً ... حيث الدُّجى كعُباب البحر مسجورُ
أو لا، فَقُلْ شفَةٌ للكأس مائلة ... تُذكّرُ العيشَ أنّ العيشَ مذكورُ
أو لا، فنصف سِوارٍ قام يَطرحه ... كفُّ الدُّجى حين عَمَّتْه التباشيرُ
أو لا، فقطعة القيد فُكّ عن بَشرٍ ... أخنى الصيامُ عليه فهو مأسورُ
أو لا، فمنْ رمضانَ النونُ قد سقطت ... لمّا مضى وهو من شوّال محصورُ

بلغت التشبيهات الهلالية التي جمعها الشاعر أحد عشر تشبيهاً (ابن نباتة، د ت، ص ١٨٦ ؛ نقلاً عن: باشا، ١٩٩٩م، ص٣٨٠).

البديعيات عامة

كان للبديعيات أو المدائح النبوية حظ وافر في أدب عصر الانحطاط ؛ فلا تجد شاعراً إلا وقد تطرق إلى هذا الموضوع، وصاغ ما استطاع صياغته: «**إن المديح النبوي في العصر المملوكي قد أضحى فنّاً شعرياً مستقلاً، له أصوله وقواعده، وله شعراؤه الذين وقفوا شعرهم عليه**» (محمد، ١٩٩٩م، ص ٢٠٧)، إلا أن البديعيات كسائر شعر هذه الفترة لم تسلم من التبعية والتقليد ؛ فجاءت على نفس الطريقة التي كانت عليها في العصور السابقة: «**إنا نلاحظ أن شعراء العصر في مدائحهم النبوية قد التزموا الأصالة؛ فاقتفوا آثار سابقيهم، والتزموا منهج الفحول أسلوباً ودرباً؛ فنسبوا وتشبّبوا ووقفوا على الأطلال، عانوا مشاقّ السفر وكابدوا الأهوال...**» (يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٥٣)، ولكن هذا لا يعني أنهم قد انسابوا انسياباً بحتاً، ولم يأتوا بشيء يُذكر في هذا الإطار، بل سعوا إلى أن يصبغوا تقليدهم بما يتناسب مع متطلبات عصرهم، إلا أن هذه المتطلبات لم تكن سوى تغييرات في ظاهر الكلام دون المساس بروحه التراثية، ودون إعطائه صبغة تتلائم مع مواصفات الشعر الحاصل على مقومات تامة، حتى نستطيع أن نسميَه مستقلاً بذاته.

وعاد الشعراء إلى الشعر العربي القديم يحاكونه ويعارضون قصائده ويضمنون أبياته ويستعينون به على أغراضهم. فجاءت بعض قصائدهم خليطاً غريباً من الشعر القديم ومن صنعة عصرهم. فهم يريدون إظهار معرفتهم بالتراث الشعري، وبراعتهم في استخدامه ليعطيهم ذلك نوعاً من الأصالة. ويريدون إثبات مقدرتهم على اصطناع فنون البديع التي فُتن بها أهل عصرهم»

(محمد، ١٩٩٩م، ص ٣٧٨)

فجاءت قصائدهم معنيّة بجزئيات العمل الأدبي دون وحدته وأهدافه. فالقصيدة عامة ليست مترابطة الأجزاء، ولا متناسقة البناء. الشاعر فيها مشغوف بغرض من أغراض الشعر مثل المدح، مغرق فيه، متهالك عليه، لا ينظر إلى ما يحيط به من الأحداث، ولا يهتمّ بمعالجة الموضوعات التي تهمّ الشعر، ولا يحاول التقاط الأحداث الهامة التي يعاني منها مجتمعه الإقليمي الخاص، والديني العام، حتى يكون الشعر في خدمة الأمّة. فالشعر يجب أن يكون له مفهوم ووظيفة ومتعة تخدم الفرد والمجتمع والأمّة، وتهيّئ لها كل الأسباب التي تنتشلها من براثن المحن والتخلّف ؛ ثم تدفعها إلى الأمام في ميادين الرقيّ و التقدم.

الشاعر في هذا العصر عامة لم يكن يحاول التخلص من الذاتية والانطوائية، ولم يكن يسعى إلى الانفتاح على مجتمعه بالتجديد في موضوعاته ومعانيه، بل بقي ـ كما كان سابقاً ـ يأخذ من سابقيه لفظاً ومعنى ؛ كما نرى عند شاعرنا في هذه السطور.

بديعيات ابن نباتة

قبل البدء بالبحث عن بديعيات ابن نباتة، لا بد من الإشارة إلى أن قصدنا من التطرق إلى بديعياته هو استكشاف ما فيها من تقليد للماضين في مدائحهم النبوية ؛ ثم إرجاع هذه المضامين إلى أصولها الأولى، ولا نقصد تحليل هذه البديعيات، وما فيها من مضامين.

لابن نباتة خمس قصائد في مدح الرسول الكريم ﷺ.

الأولي. الهمزية، ومطلعها:

شجُونٌ نحوَها العُشَّاقُ فاؤُوا وصَبٌّ ما له في الصَّبرِ راءُ

(ابن نباتة، د ت، ص ١)

وتقع في تسعة وتسعين بيتاً.

والثانية. الرائية، ومطلعها:

صحا القلبُ لولا نَسْمَةٌ تتَخَطّرُ ولمعةُ برق بالغضا تتسَعَّرُ

(السابق، ص١٨٠)

وتقع في تسعين بيتاً، وهي خير ما في ديوانه.

والثالثة. العينية، ومطلعها:

يا دارَ جيرتنا بسفح الأجرع ذكرَتْكِ أفواهُ الغُيوث الهُمَّع

(السابق، ص٢٩٠)

وتقع في ثمانية وثمانين بيتاً.

والرابعة. اللامية، ومطلعها:

ما الطَّرفُ بعدكمُ بالنّوم مكحولُ هذا وكَم بيننا مِن ربعكم ميلُ!

(السابق، ص ٣٧٢)

وتقع في تسعة وسبعين بيتاً.

والخامسة. الميمية، ومطلعها:

أوْجِزْ مديحَك فالمقامُ عظيمُ من دونه المنثورُ والمنظومُ

(السابق، ص ٤٢٨)

وهي أقصر مدائحه وأضعفها.

إنه يعتبر من المقلّين في قول المدائح النبوية. وقد يكون أنه نظم بديعياته استجابة منه لطلب الأوساط الأدبية آنذاك التي أوْلت المدح النبوي أهمية كبرى، مما دفع الكثيرين إلى قول البديعيات، حتى ولو تعوّدوا على قول أشعار يتنافى مضمونها مع المدحيات؛ كما فعل الشاب الظريف الذي تعوّد على نظم أشعار مليئة بالمجون، ولكنه قال أشعاراً في مدح الرسول أيضاً.

بديعيات ابن نباتة مليئة بالمحسنات البديعية مماشاةً مع ما فُتن به أهل عصره، مليئة بالتكرار اللفظي والمعنوي. فهو قد كرر مضامين مختلفة في قصائده؛ كذكره المتكرر لمعجزات الرسول وشجاعته وكرمه. تبدأ القصائد هذه على طريقة الجاهليين بالنسيب ووصف الراحلة،إلا أن هناك إشارة من الشاعر إلى موضوع الحقيقة المحمدية، ومفهومها الغامض عند المتصوفة؛ إذ يقول:

تنقَّلَ نوراً بينَ أصلاب سادةٍ فللّه منه في سما الفضل نَيِّرُ
به أيّد الطّهرُ الخليلي فانتَحَتْ يداه على الأصنام تَغزو وتكسرُ
ومن أجْله جيءَ الذّبيحان بالفِدى وصينَ دمٌ بين الدِّماءِ مُطهَّرُ

(ابن نباتة، د ت، ص ١٨٢؛ نقلاً عن: مبارك، د ت، ص ٢٣٥)

وفي ذلك مايدل على مدى أثر المتصوفة في تلك الفترة.

وهنا نريد الكلام عن أثر التراث العربي في مدحيات ابن نباتة. نبدأها بالبحث عن آثار حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول الأول.

أثر حسّان بن ثابت:

نقل ابن نباتة في همزيته التي يعرض بالكافرين البيت الثاني من قصيدة حسان دون أن يحدث فيه أي تغيير حيث يقول:

فقل للملحدين تنقّلوها جَحيماً إنّنا منكم بُراءُ
وإنّ أبي ووالدَه وعِرضي لِعِرض محمد منكم وقاءُ

«وفي هذا ما يشعر بأنه كان يعارض همزية حسان بن ثابت» (السابق، ص ٢٣١)؛ **فإن حسان في همزيته التي قالها في فتح مكة أشار في كثير من أبياتها إلى منكري الرسالة وتوعدهم فيها:**

شهدْتُ به وقومي صدَّقوه فقلتم ما نُجيبُ وما نشاءُ
فإنَّ أبي ووالدَه وعرضي لِعِرض محمد منكم وقاءُ

(شيخو، آ د ت، ص ٢٨)

وقد عبّر الشاعر فيها صراحة عن تأثره بكعب بن زهير وحسان بن ثابت؛ إذ يقول:

فهل لي إلى أبيات طيبةَ مَطْلَعُ به مخلصٌ من إسار شقائي
أصوغ على الدُّرِّ اليتيم مدائحاً أُعَدُّ بها من صاغة الشّعراءِ
ببيت زهيرٍ حيث كعبٌ مباركٌ وحسان مدحي ثابت ورجائي

(ابن نباتة، د ت، ص ١٥؛ نقلاً عن: محمد سالم، ١٩٩٩م، ص ٣٧٨)

و في قصيدته العينية يرى نفسه خليفة حسان، فيقول:

إنْ كنت حسّاناً بمدحك نائباً فسناك أرْشده وقالَ لي اتبع

(ابن نباتة، د ت، ص ٢٩٣)

وفيها يقول أيضاً:

ماذا عسى المدحُ الطّهورُ يديرُ من كأس الثنا بعد الكتاب المترع
بعد الحواميم التي بثنائها هَبَطتْ إليك من المحلِّ الأرفع

والبيت الثاني من قصيدة ابن سينا في النفس، ومطلعها:

هبطتْ إليك من المحل الأرفع ورقاءُ ذاتُ تدلّل وتمنّع

(مبارك، د ت، ص ٢٣٦)

أثر كعب ابن زهير

وأكثر قصيدة من قصائد المدح النبوي التي عورضت هي قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ. ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة؛ منها: أنها قيلت في رسول الله ﷺ أثناء حياته، وأثاب عليها؛ فمعارضتها تقرّب الشاعر من أن تكون قصيدته مقبولة عند ممدوحه؛ ولأنها قصيدة قديمة احتفل بها كعب كثيراً؛ فمعارضتها تعطي الشاعر معرفة بالشعر العربي الأصيل، ويفيد منها شكلاً وموضوعاً ووزناً وقافية.

أفاد شاعرنا منها وقال قصيدة في معارضتها

بدأها بقوله :

ما الطّرْفُ بعدكمُ بالنوم مكحولُ هذا وكَم بيننا من ربعكم ميلُ!
ما يمسِك الهُدبُ دمعي حين أذكركم إلا كما يُمسِك الماءَ الغَرابيلُ

وبعد أن يتغزّل على طريقة كعب، يضيف إلى مقدمته الوعظ وذكر الأماكن المقدسة، و ينتقل إلى المدح على طريقة كعب، فيقول :

إن لم أنلْ عملاً أرجُو النجاةَ فلي من الرسول بِإذن الله تنْويلُ

ويسهب في مدحه مضيفاً المعجزات والصنعة التي عرفت في عصره، حتى إذا وصل إلى الخاتمة، صرّح بمعارضته لكعب فقال :

إن كان كعبٌ بما قد قال ضيفك في دار النعيم فلي في الباب تطْفيلُ
وأينَ كابن زهيرٍ لي شذا كلِم رَبيعُها بغمام الغرب مَـطلولُ

هذه المعارضة مأخوذة من الشكل الشعري لقصيدة كعب، وهي بذلك شكل تقليدي. وأمّا ما أضافه الشاعر، فلا يخرج القصيدة عن أساسها الأصلي (محمد سالم، ١٩٩٩م، ص ٣٦٠).

هناك أمور تجدر بالإشارة إليها عند مقارنتنا لهاتين القصيدتين، هي :

أولاً. إن ابن نباتة وعند تخلصه إلى المدح يتخلص على طريقة كعب ؛ فكعب عندما ييأس من كل أحد، يبني أمله كله على عفو الرسول وعطفه ؛ إذ يقول :

وقال كلُّ خليل كنتُ آمُله لا أُلهيَنَّك إني عنك مشغولُ
فقلتُ خلُّوا سبيلي لا أبا لكم فكل ما قدَّرَ الرحمنُ مـفعولُ
نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ الله أوْعدني والعفوُ عند رسول الله مأمولُ

(شيخو، آ د ت، ص ١٤)

وقد تخلص ابن نباتة إلى المدح كذلك وقال :

إن لم أنلْ عملاً أرجُو النَّجاةَ فلي من الرسول بإذن الله تنويلُ

(ابن نباتة، د ت، ص ٣٧٣)

فهو يأمل النوال من الرسول، ولكن ليس من باب الجزاء، فهو يعترف صراحة بأن ليس لديه عمل يرجو النجاة به، بل أمله كله مبني على الرسول ورحمته.

ثانياً. أخذ الشاعر عن مقدمة كعب (الطرف المكحول) في قوله :

وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلتْ إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطّرف مكحولُ

نقل ابن نباتة معنى كعب من وصف الحسناء إلى وصف نفسه ؛ فحبيبة كعب طرفها مكحول، في حين أن طرف ابن نباتة لم يكتحل بالنوم. وهنا تبدو الصنعة في التورية في لفظة «ميل» ؛ إذ ورّى بها عن البعد وأداة الكحل. فافتقدت ألفاظُ كعب فصاحتَها عند ابن نباتة ؛ إذ قال :

ما الطّرفُ بعدكم بالنوم مكحولُ هذا وكم بيننا من ربعكم ميلُ!

ثالثاً. أخذ ابن نباتة عبارات كاملةً من قصيدة كعب مثل قوله في مدح الرسول ﷺ :

حتى أتى عربيّ يُستضاءُ به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ

(السابق، ص٧٤)

أخذه ابن نباتة من قول كعب:

إن الرّسولَ لَسيفٌ يُستضاءُ به مهنّدٌ من سيوف الله مسلولُ

(شيخو، آ د ت، ص ١٦)

وكذلك قال كعب:

ولا تُمسّك بالعهد الذي زعمت إلا كما يمسك الماءَ الغَرابيلُ

فأخذه ابن نباتة وقال:

ما يُمسك الهُدبُ دمعي حين أذكركم إلا كما يُمسك الماءَ الغَرابيلُ

وقال كعب:

كانت مواعيدُ عُرقوب لها مثلاً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

فاقتبسه ابن نباتة وقال:

باتَتْ زخارفُها بالصبر واعدةً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

مفاهيم تراثية عامة:

قصيدته الرائية هي خير ما قال في المدائح النبوية، وربما كانت خير ما في ديوانه من الشعر الجيد. وتمتاز هذه القصيدة بوضوح المعاني و قوة السبك، ولابد أن يكون معاصروه تلقّوها بكثير من القبول؛ لأنها بَعث لروعة القديم. ولننظر كيف يقول:

صحا القلبُ لولا نسمةٌ تتخطّرُ ولمعةُ برق بالغضا تتسعّرُ

وذكرُ جبين البابليّة إذ بدا هلالُ الدُّجى والشيءُ بالشيء يَذكُرُ

سقى اللهُ أكنافَ الغَضا سائِلَ الحَيا وإن كنتُ أسقي أدمُعاً تتحدّرُ

وعيشاً نضا عنه الزمان بياضَه وخلّفه في الرَّأس يَزهو ويَزهَرُ

تغيّر ذاك اللونُ معْ مَنْ أحِبُّه ومَن ذا الذي يا عَزُّ لا يتغَيرُ

وكان الصبا ليلاً وكنتُ كحالم فيا أسَفا والشَّيبُ كالصبح يُسفِرُ

ويُنكرني ليلى وما خِلْتُ أنّه إذا وَضَعَ المرءُ العِمامَةَ يُنكَرُ

والقارئ يجد في هذا الشعر العذب كلمات «الغضا»، و«البابلية»، و«العمامة»، ويجد كذلك عبارات: «ومن ذا الذي يا عز لايتغير»، و«صحا القلب». وكل أولئك إشارات إلى معان تحدّث عنها الشعراء الأقدمون (مبارك، د ت، ص ٢٣٢).

وكلامه في الشطر الثاني من البيت الأخير يذكّرنا بخطبة الحجّاج، والبيتِ الذي استشهد به في خطبته، وهو بيت سحيم بن وثيل:

أنا ابنُ جَلا وطَلّاعُ الثنايا متى أضع العِمامة تعرفوني

وقول ابن نباتة:

سقى اللهُ أكنافَ الغضا سائِلَ الحَيا وإن كنتُ أسقي أدمُعاً تتحدّرُ

وعيشاً نضا عنه الزمانُ بياضَه وخلّفَه في الرأس يَزهو ويزْهَرُ

يذكّرنا بقول الشاعر:

سقى اللهُ أياماً لنا ولياليا مَضَينَ فلا يُرْجى لهن طلوعُ

إذ العيشُ صافٍ والأحبّة جيرةٌ جميعٌ وإذ كلُّ الزمـان ربـيعُ

(محمدسالم، ١٩٩٩م، ص ٢٩٤)

النتائج :

١. استقى الشعر في عصر الانحطاط مواضيعه وأساليبه من التراث ؛

٢. كان استقاؤه من التراث تقليداً بحتاً ومماشاته للواقع تكلفاً ؛

٣. أضاف هذا الشعر على التراث محسنات بديعية ومصطلحات لا تصلح أن تكون مادة للشعر ؛

٤. ضعف الشعر بذلك ولم يتمكن من الإبداع ؛

٥. أخذ ابن نباتة من التراث معنى واقتباساً وصبغه بصبغة العصر ؛

٦. كان الحظ الأوفر للمتنبي وأبي نؤاس في أخذه الكثير الكثير منهما ؛

٧. أما في البديعيات، فقد أخذ من حسّان بن ثابت وكعب بن زهير؛

٨. هناك مفاهيم تراثية عامة في شعره تداولها الشعراء الأقدمون ؛

٩. التصوير الفني عنده أضعف بكثير مما كان عليه في التراث ؛

١٠. للتعويض عن ذلك استخدم البديع والمصطلحات العلمية ذريعة للتغطية على ذلك ؛

١١. للتَّكرار وقع مسموع في شعره ؛ سواء اللفظي أو المعنوي.

□□□

المصادر والمراجع

١. ابن نباتة، محمد بن محمد. (د ت). ***ديوان***. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢. أبو تمّام، حبيب بن أوس. (٢٠٠٠م). ***ديوان أبي تمّام***. (تحقيق إيمان السباعي). (ج ١). (ط ١). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٣. الأيوبي، ياسين. (١٩٩٥م). ***آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي***. (ط ١). طرابلس: د. ن.

٤. باشا، عمر موسي. (١٩٩٩م). ***تاريخ الأدب العربي: العصر المملوكي***. بيروت: دار الفكر المعاصر.

٥. البرقوقي، عبدالرحمن. (د ت). ***شرح ديوان المتنبي***. (ج ١). بيروت: دار الكتاب العربي.

٦. البستاني، بطروس. (د ت). ***أدباء العرب***. (ج ٣). بيروت: دار الجيل.

٧. الخنساء، بنت عمرو. (١٩٩٣م). ***ديوان***. (شرح أبي العباس ثعلب). (ط ١). بيروت: دار الكتاب العربي.

٨. الركابي، جودت. (١٩٩٦م). ***الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار***. بيروت: دار الفكر المعاصر.

٩. شيخو، لوئيس. (آ د ت). ***المجاني الحديثة***. (ج ٢). (ط ٣). بيروت: دار المشرق.

١٠. ـــــــــــ. (ب د ت). ***المجاني الحديثة***. (ج ٣). (ط ٣). بيروت: دار المشرق.

١١. ضيف، شوقي. (د ت). ***تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)***. (ط ٣). مصر: دار المعارف.

١٢. طرفة، ابن العبد. (١٩٩٤م). ***ديوان***. (شرح سعد الضاوي). (ط ١). بيروت: دار الكتاب العربي.

١٣. الفاخوري، حنا. (١٩٨٩م)، ***ديوان امرئ القيس***. (ط ١). بيروت: دار الجيل.

١٤. العكبري، ابو البقاء. (آ د ت). ***شرح ديوان المتنبي***. (ج ٣). بيروت: دار المعرفة.
١٥. ـــــــــــــــ . (ب د ت). ***شرح ديوان المتنبي***. (ج ٤). بيروت: دار المعرفة.
١٦. مبارك، زكي. (د ت). ***المدائح النبوية في الأدب العربي***. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
١٧. محمد، محمود سالم. (١٩٩٩م). ***المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي***. بيروت: دار الفكر المعاصر.
١٨. يوسف، خالد إبراهيم. (٢٠٠٣م). ***الشعر العربي أيام المماليك***. (ط ١). بيروت: دار النهضة العربية.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی